معهد محمد علي بالحامة الرابعة آدابا عبد الحكيم علوي

شعر الحماسة في القرنين 3 و4 للهجرة

ظهر شعر الحماسة أوّل ما ظهر في العصر الجاهلي من رحم الفخر مع عنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم....ثمّ سجّل حضوره في بقيّة أغراض الشعر العربيّ.

ويظلّ مصطلح الحماسة رغم كثرة تداوله مصطلحا غائما يفتقر ضمن المنظومة المصطلحية النقدية العربية إلى الدقّة والتحديد. فالحماسة مفهوم متفلّت ملتبس متعدّد الوجود والمعاني. وقد اختلفت حوله الآراء فهي عند البعض غرض من أغراض الشعر، وهي عند البعض الآخر معان يمكن أن تندرج في مختلف الأغراض الشعرية. والناظر في كتب النقد يلحظ بيسر أنّ الحماسة لم تصنف عند القدامى غرضا مستقلا بذاته، لأنّها لم تذكر ضمن الأغراض المألوفة. فلقد صنّفها أصحاب المختارات بابا مستقلا في كتاباتهم كما فعل أبو تمام في حماسته، فهم يختارون أبياتا أو مقطوعات فيها حماسة، ولا يوردون كلّ القصيدة أي أنهم كانوا يبحثون عن معنى هو الحماسة داخل الأغراض جميعها. فالحماسة موضوع من موضوعات الشعر. وهي تتخلّل أغراضا شعرية متعدّدة تتنوّع صورها ومضامينها الفرعيّة بتنوّع تلك الأغراض المختلفة من مدح وفخر ورثاء وهجاء.

وللحماسة لغة تعريفات عديدة أهمّها ما أورده ابن منظور في لسان العرب فنجد عنده ما يلي : " حمس الشرّ اشتدّ .والحماسة المنع والمحاربة. والتحمّس التشدّد. ورجل حمس وحميس وأحمس أي شجاع ... وتحامس القوم تحامسا وحماسا تشادوا واقتتلوا ...". فاللفظ لا يخلو من معنى القوة والشدّة والشجاعة . ومن هنا رسخ المعنى الاصطلاحي موصولا بالحرب وأجوائها استبسالا في المعركة وبطولة في مقارعة الخطوب. فلفظ الحماسة منغرس في أتون مرجعيّة قتاليّة وموصول بسياق نفسيّ تتناسل منه معاني الحسم والحزم والشجاعة والصلابة ... إنّ الحماسة بناء على ما تقدّم نهج في الشعر وفنّ من فنون القول ترتبط بالحرب وتصورّ المعارك والبطولات الحربية وتشيد بالأبطال وتتوعد الأعداء، والحماسة أيضا تحفّز نفسيّ للبذل والدفاع والوثوب والفداء .

علاقة شعر الحماسة بالحروب (النصّ والمرجع)

زادت في القرنين 3 و4 للهجرة الفتن والقلاقل، فإلى جانب التهديدات الخارجية في أطراف الخلافة العربية (الروم)، ظهرت بوادر الانقسامات الداخلية فبدأت ظاهرة الدويلات تكثر يوما بعد يوم، وانشغل كلّ سائس بالحرب مع جيرانه فكان من الطبيعي أن تكثر الحروب والمواجهات، ونتيجة لذلك كثرت القصائد التي تتحدّث عن البطولات والمواقع الحربية، وهو ما يجعلنا إزاء عصر مناسب لشعر الحماسة، فمادام الشعر ديوان العرب ومجمع أمثالهم فسيكون مصاحبا لكلّ تلك الأحداث.

ولابدّ في البداية أن نميّز بين صنفين من قصائد الحماسة:

* قصائد ذات مرجعية تاريخية: وقد جاءت مرتبطة بواقعة حربية معلومة كموقعة عموريّة التي احتفى بها أبو تمام في بائيته المشهورة : السيف أصدق أنباء من الكتب

في حدّه الحد بين الجد واللعب .

وموقعة الحدث التي انتصر فيها سيف الدولة على الدمستق وفيها يقول المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم .

* قصائد منعتقة من المرجع: لم تكن بعض قصائد الحماسة وليدة مواقع حربيّة ولا أحداث تاريخية، ومنها قصيدة المتنبي الفخرية ومطلعها : ضيف ألَمَّ برأسي غير محتشم

والسيف أحسن فعلا منه باللّمم .

ومن خلال كلّ ما سبق يمكن أن نعتبر علاقة شعر الحماسة بالمرجع نسبيّة. ويمكن كذلك من الناحية المنهجيّة التمييز بين شعر الحماسة وشعر الحروب. فشعر الحماسة يضم شعر الحروب وكلّ ما كتب منعتقا من المرجعية التاريخية، لذلك فإنّ حضور التاريخ (الواقع) في قصائد الحماسة ليس هو الذي يمنح هذا الشعر بعده الحماسي. فوقائع التاريخ لا تمثّل إلا منطلقا لشعر الحماسة، لأنّ الرهان الأوّل للشاعر هو تجميل الواقع والقدرة على تحويل التاريخ إلى تاريخ البطولة. فلا تكون غاية حضور التاريخ في المقام الأول التسجيل والتأريخ بقدر ما يكون ذريعة لغاية أهمّ هي التأثير في المتلقي من خلال تحويل الوقائع إلى مجال لذكر البطولات والتغني بالانتصارات. وفي قصائده يذكر الشاعر أسماء الأمراء والقادة المسلمين وأسماء بعض القادة من معسكر الأعداء (تيوفيل، الدمستق ...)، كما يذكر مواضع المعارك وأسماء المدن (عمورية، مجاز مسينا ...) التي بلغتها الجيوش. وهو حضور لا يبدو غريبا في قصائد تسجّل الوقائع التاريخية وتمجّد أعمال أبطال تاريخيين يثير ذكرهم في المخيال الجمعي مشاعر الاعتزاز والفخر والإكبار، إذ تتحدّث عن بطولة استثنائية ونماذج لقيم خالدة يحيا بها ضمير الجماعة. فالشاعر يقيم في مخيّلة الجماعة رمزا أبديا لقيم الأمّة الخالدة يقول حسين الواد في كتابه اللغة الشعر في ديوان أبي تمام«: فالتاريخ يوفّر للشاعر إطارا عاما لذكر الوقائع، فيوردها موهما بأنها قد وقعت مثلما سردها تماما على النحو الذي يبدي البطل كائنا خارقا للمألوف يأتي أعمالا مذهلة، ويتّصف بصفات خارقة فينتقل بذلك من الموجود إلى المنشود ويصبح مثلا أعلى للأمة التي ينتمي إليها ».

إنّنا إزاء مخيال عربي جُبِل على أسطرة الانتصارات وتحويلها إلى ملاحم بطوليّة يتحالف فيها الإلهي والإنساني لذلك كلّما حاول الشاعر أسطرة التاريخ من خلال تجميله وتحويله إلى سلسلة من الانتصارات بغضّ النظر عمّا جرى في الواقع كان النفس الحماسي في ذلك الشعر أبرز. فكثيرا ما كانت قصائد الحماسة عبورا من ثقافة الخسر إلى أدب النصر وارتحالا من أحوال الانكسار إلى أفعال الانتصار. فلقد رسب شعر الحماسة في المخيال سبيلا لتخليد لحظة انتصار وعنوان فحولة وبطولة . فليس شعر الحماسة مجرّد قول جماليّ ولا إشادة بفعل بطولي فحسب بل هو يحمل أملا هاجعا في النفوس باستعادة أمجاد أمّة يتربص بها الأعداء من كل جهة .

الخصائص الفنية المميزة لشعر الحماسة

هي جملة المكونات المتعلقة بكيفية القول إذ تقوم شعريّة النصّ على سياسة تصريف اللغة لفظا وتركيبا .

1 – الإيقاع :

يحتل الإيقاع في الشعر مكانة رفيعة بين مكونات النصّ المختلفة، حتى عُدَّ في نظر النقاد المكوّن الذي يفارق به الشعر عالم النثر، فالإيقاع كما يقول محمود المسعدي "هندسة وبناء ".ويشمل الإيقاع مختلف مظاهر الانتظام والتنظيم في النصّ، وهو انتظام يكشف عن تنظيم مخصوص للمعنى في النصّ. وقد تنوّعت أشكال الإيقاع وتضافرت لتحقق بعض شروط الشعريّة مناسبة بين المغاني والمعاني وحكاية لأجواء الحرب. وفي ذلك إثارة للحميّة وإذكاء للحماسة فضلا عن عطف القلوب على أصيل القيم.

أ- الإيقاع الخارجي :

*البحر : يتميّز شعر الحماسة بركوب بحور شعريّة قويّة ذات النفس الطويل والنغم المديد (الكامل، الطويل، البسيط ...) لأنها ذات إيقاع ثقيل شديد شدّة الحرب وبأسها في مقامات وصف أهوال الحروب (قصيدة الحدث الحمراء للمتنبي ...) وذات غنائية وتطريب في مقامات النشوة بالانتصار والتغني بمآثر الأبطال.

.*الروي: يميل شعراء الحماسة إلى الحروف المفخّمة والمجهورة مثل القاف والطاء والباء والجيم والدال.... لتتناسب قوة المعاني مع جرس الروي .

ب- الإيقاع الداخلي : هو غنيّ بضروب الترديد الصوتيّ وبفنون البديع في غير تكلّف، يناسب مقام الطعان وفعل الفرسان ومن ذلك مثلا:

*الترديد: ليس ترديد الأصوات أو الألفاظ في قصائد الحماسة مجرد لعب لفظيّ، وإنّما هو مظهر من مظاهر تنظيم المعنى وإخراجه في النصّ على نحو مخصوص .

- الترديد الصوتي : ترديد المتنبي المقاطع الطويلة إيحاء بفعل البناء والإعلاء في قوله:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حوله متلاطم

ومحاكاته قعقعة السيوف عبر ترجيع صوت القاف الانفجاري في قوله:

وما تقرّ سيوف في ممالكها حتّى تقلقل دهرا قبل في القلل.

- الترديد اللفظي: وهو تكرار كلمة كقول ابن هانئ :

"عبدان عبدان وتبع تبع فالفاضل المفضول والوجه القفا

*الموازنة التركيبية : تكون داخل البيت الواحد أو بين الأبيات كقول ابن هانئ :

فأنفاسهن الحاميات صواعق وأفواههن الزافرات حديد.

*الجناس: يتواتر الجناس بأنواعه المختلفة في قصائد الحماسة: يقول أبو تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب.

*الاشتقاق :وهو تواتر كلمات مشتقة من نفس الجذر، ويساهم الاشتقاق في توليد المغنى في القصيدة وترجيع النغمة ومن أمثلته قول المتنبي :

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

*التقسيم (الترصيع): يعمد الشاعر إلى تقسيم البيت إلى أجزاء متناظرة متوازنة تركيبيا وصوتيا بما يشبه "القافية الداخلية " ونجد ذلك خصوصا عند أبي تمام :

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب .

2- المعجم : تتميز قصائد الحماسة ب :

* تنويع الحقول المعجميّة من قبيل: المعجم الحربي(آلات الحرب...)، معجم طبيعي، معجم ديني، معجم غزلي، معجم قيمي.....

* سيطرة معجم القوّة : ويتجلّى ذلك من خلال تواتر المعاجم التالية :

- معجم الحرب ومعجم الموت وما يتّصل بهما من دماء وجراح .. وآية ذلك قول أبي تمام:

كم بين حيطانها من فارس بطل قاني الذوائب من آني دم سرب .

أو قول المتنبي:

حواليه بحر للتجافيف مائج.....يسير به طود من الخيل أيهم.

- معجم الوحش (الأسود، الصقور) كقول ابن هانئ: من الطير إلا أنهن جوارح فليس لها إلاّ النفوس مصيد

أو قول المتنبي: هلّا على عقب الوادي وقد طلعت أسود تمرّ فرادى ليس تجتمع.

- معجم القوى الطبيعية (النار،الإعصار، الرعد، البرق..):

أوقدت من دون الخليج لأهلها نارا لها خلف الخليج شرار(أبو تمام)

سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله فلمّا دنا منها سقتها الجماجم (المتنبي).

*تخيّر الجزل المتين القويّ من اللفظ المتجذّر في كلام العرب منذ الجاهليّة والمناسب للمقام الحربي والمحيل على قيمة البطولة شخوصا وآلات وفضاءات .

*إثراء المعجم الحربي بالمعجم القرآني ومن أمثلة ذلك ذلك قول ابن هانئ

أما الجواري المنشات التي سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد.

*تلطيف المعاني الحربية (تخليص الحرب من بشاعتها) باعتماد المعجم الغزلي أو الطبيعي ومن أمثلة ذلك تشبيه ابن هانئ لمع الأسنّة في حشد من الجيش تعالت رماحه بالزهر في الحديقة:

كأنّ غيضات الرماح حدائق لمْعُ الأسنّة بينها أزهار.

إنّ شاعر الحماسة يختار جملة من الألفاظ المفردة لتنتظم في علاقات تنتج المعنى، وتتخذ الألفاظ شعريّتها من خلال حسن اختيارها وتوزيعها على نحو يفضي إلى تأدية الدلالة .

3- الصورة الشعرية :

هي عنصر هام في القول الشعري ينقله من دائرة الكلام العادي إلى الكلام الموحي بالعبارة والإحالة والتلميح. والصور الشعريّة إعادة تشكيل للعالم وخلق جديد له بالكلمات من خلال العلاقات الجديدة التي توجدها الصورة بين الموجودات. وقد حرص شعراء الحماسة على :

*الإصابة في الوصف والبراعة في التصوير: تستدعي الحماسة صورا حربية تجسّد مشاهد الإغارة ووقائع القتال ومآل المعارك. ومن أثير الوسائل البلاغية في الوصف والتصوير التشبيه والاستعارة والكناية كقول أبي تمام : وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر.

* تكمن شعرية القصيدة الحماسيّة في بناء الصورة وتشكيلها وتوسيع نطاقها أفقيا وعموديّا ومن أمثلة ذلك صورة الجيش في قول المتنبي:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم.

*تقوم الصورة الشعرية على المبالغة والإيغال في الخيال فهي تنهض بوظيفة تأثيريّة غايتها تأكيد عظمة الممدوح أو المرثي:

حتى كأنّ جلابيب الدجى رغبت عن لونها وكأنّ الشمس لم تغب (أبوتمام)

وقفت وما في الموت شكّ لواقف كأنّك في جفن الردى وهو نائم (المتنبي).

* تلوين الصورة وتنويع أساليب إخراجها باعتماد :

- الصوت : جلبة المعركة وقعقعة السلاح وقرع القنا بالقنا.

- الإضاءة : مقابلات بين النور والدجى والشمس والظلمة، يقول أبو تمام مثلا .

ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب .

- اللون: حمرة الدماء وصفرة القسطل وخضرة لباس أهل الجنّة ،يقول المتنبي :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أيّ الساقيين الغمائم .

- الحركة : يعمد ثالوث الحماسة إلى التخييل في الصورة وتكثيف الطابع الحركي فيها:

سحاب من العقبان يسحب تحتها سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه (المتنبي).

4- الأساليب : تتميز قصائد الحماسة ب:

*المزج بين السرد والوصف : قامت قصائد الحماسة على المزاوجة بين التسجيل والتصوير أي على المزاوجة بين سرد الأفعال وتصوير الأحوال، لذلك نجد في قصائد الحماسة مراوحة بين الجمل الفعلية والجمل الاسمية .

*العناية باللغة وحسن اختيار اللفظ: يكشف شعر الحماسة حرص الشعراء على الانتقاء المعجمي أي على اختيار العبارة حسب طبيعة المقام والانتقاء الصرفي، ومثال ذلك اختيار الصيغة المناسبة لمعاني الحماسة بانتقاء صيغ المبالغة في وصف الممدوح، يقول المتنبي متحدّثا عن سيف الدولة :

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح وثغرك باسم .

بالإضافة إلى تحسين التراكيب والصيغ كاعتماد التراكيب التلازمية وتركيب الإثبات والنفي وتركيب الحصر

لا يبعدنّ الله إلا معشرا أضحوا على الأصنام منكم عكفا (ابن هانئ).

لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق فليس يأكل إلّا الميتة الضبع (المتنبي).

*تواتر الحكم والأمثال: الحكم والأمثال هي أبلغ القول الشعري وأنفذه إلى وجدان المتقبّل لاسيما إذا صيغت صياغة بديعة قوامها الموازنة أو المقابلة نحو قول أبي الطيب:

إنّ السلاح جميع الناس تحمله وليس كلّ ذوات المخلب السبع.

فللحكمة قدرة فائقة على استعادة مأثور التجارب وأصيل القيم وإخراجها مخرجا حسنا.

المشترك المضموني (المعاني الحماسية)

تدور معاني الحماسة عادة على التغني بقيم البطولة الحربية والقوة العسكرية والإشادة بالجيوش والثقة بالنفس والفتوة ... وهي تتنوّع بتنوّع الغرض الشعري، وإن كانت تتّفق في الاستناد إلى المرجعية العربية الجاهلية التي استقر فيها نظام القيم على نموذج يشيد بالمجد على أطراف الأسنّة والرماح. وأبرز المعاني الحماسية في قصائد المتنبي وأبي تمام وابن هانئ هي :

*تمجيد الأمراء والولاة والقادة، وتصويرهم في صورة البطل ذي البصيرة النافذة والرأي الراجح والقائد المحنّك الخبير بشؤون الحرب والقتال ومن أمثلة ذلك قول أبي تمام مادحا الثغري:

خشعوا لصولتك التي هي عندهم كالموت يأتي ليس فيه عار.

وقول المتنبي في مدح سيف الدولة:

ولا كتب إلا المشرفيّة عنده ولا رسل إلّا الخميس العرمرم.

إنّ من خصال القائد العسكري والسياسي البطولة والإقدام ورباطة الجأش والمبادرة بالهجوم وحسن التدبير والتخطيط للمعركة والتنكيل بالأعداء بالإضافة إلى دفاعه عن الحرمات وقدرته على العفو والصفح عند الظفر .

*الإشادة بحركة الجيش ومبادرته بالهجوم ومباغتة العدو، وذكر ما يتّصف به الفرسان من قوّة وإقدام وحبّ للموت في سبيل النصر، يقول المتنبي في هذا الّصّدد :

قاد الجياد إلى الطعان ولم يقد إلاّ إلى العادات والأوطان.

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالأذان .

يرمي بها البلد البعيد مظفر كل البعيد له قريب دان .

*الإشادة بالنصر:

قد صرحت عن محضها الأخبار واستبشرت بفتوحك الأمصار (أبو تمام).

طريدة دهر ساقها فرددتها على الدين بالخَطيّ والدهر راغم (المتنبي).

*مدح الأسلحة والإشادة بعدّة الحرب: في قصائد الحماسة إشادة بسرعة الجياد واندفاعها:

تباري نجوم القذف في كلّ ليلة نجوم له منهنّ ورد وأدهم(المتنبي).

وإشادة بعظمة الأساطيل وقدرتها على حسم المعارك البحرية:

أما والجواري المنشات التي سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد (ابن هانئ)

بالإضافة إلى التغنّي بالأسلحة (السيوف، القنا، الدروع....) ومدح ما تدلّ عليه من سيطرة وسيادة وما تحدثه من رعب في صفوف الأعداء .

*وصف المعركة : يحرص شعراء الحماسة على ذكر أسماء الحرب وصفاتها وكناها (حرب ، معركة، وقعة) ويتوسّعون في وصفها (استفراغ الصورة) وأحيانا يعمدون إلى الوصف الخاطف والقصير .

*صورة العدو : يعمد شاعر الحماسة إلى أحد أمرين :

- التهوين من شأن الجيش المعادي ببيان عجز قائدهم وجبنه وتخاذل جنوده وفرارهم من ساحات الوغى . يقول أبو تمام :

فالمشي همس والنداء إشارة خوف انتقامك والحديث سرار .

- تعظيم العدو وإبراز قوته الفائقة عند الوصف للإعلاء من انتصار المسلمين عليه ومن ذلك قول ابن هانئ :

جمع الكتائب حاشدا فثناهم ملك قبل إنفاذ الجيوش رعيل

والنصر ليس يبين حقّ بيانه إلاّ إذا لقي الكثيرَ قليل

قيم الحماسة

إنّ جمالية شعر الحماسة تتجاوز المستوى الفني إلى مستوى الدلالة إشادة بقيم أصيلة وأعمال نبيلة جماعها قيمة الفتوة. وهي قيمة من أبرز قيم العروبة التي انبرى الشعراء متمثلين إياها في ممدوحهم أو مرثيهم، فإذا هو نموذج قيمي أصيل يطلب فيدرك . فالقيم التي يتغنى بها شعراء الحماسة تمثّل منتهى ما اتفقت عليه الجماعة من أصيل الصفات وجليل الأفعال التي عزّ صاحبها في أحوال الضعف والجبن وقد أصيب القوم بالوهن يقول المتنبي :

أيملك الملك والأسياف ضامئة والطير جائعة لحم على وضم .

فقصيدة الحماسة هي صحيفة تعبر عن المنشود أكثر من تعبيرها عن الموجود، ففيها تنقدح شرارة الحلم الحضاري المنشود بالقيادة والريادة...إنّها على حدّ تعبير أحد النقاد "أزمة حضارة بدأت تنخرها دودة الفتن، فأخذت تصدّر أزمتها نحو الخارج عسى أن تفوز بتوازن مفقود، وكان الشاعر الحماسي خلال ذلك منوطا به أن ينطق بحاجاته وحاجات أمّته في آن، فيصوّر المعركة وانتصاراتها أو يرثي نموذجا قيميّا انزلق إلى قبره دون رجعة،أو يلهج بذكر ذات خارقة تمثلت قيم الجماعة كأفضل ما يكون، سواء أكانت هذه الذات هي ذات المادح أو الممدوح ".

ويمكن تفريع المثل والقيم التي يسعى شعراء الحماسة لتثبيتها إلى:

*قيم حربية : وهي قيم يعتزّ بها العربي منذ العصر الجاهلي وأبرزها :

- البطولة والإقدام والشجاعة والقوّة : وهي صفات محمودة تتواتر في مختلف الأغراض، إذ لا يستقيم دونها مدح أو فخر أو رثاء لأنّها سبيل العبور إلى الفتوّة المنشودة . لذلك نجد في قصائد الحماسة إشادة باقتحام الأهوال ومقارعة الخطوب بكلّ صبر وثبات وتغنّيا ببطولة خارقة ترتقي بصاحبها إلى ذات ملحمية لا يعجزها شيء ولا يقهرها قاهر. والفروسية هي السبيل إلى البطولة. فالممدوح قائد عسكري وسياسي وإمام الأمة، وهو في الوقت نفسه فارسها المغوار وبطلها الأوحد، يقول المتنبي مثلا :

تمرّست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر .

- الحلم والعفو عند المقدرة .

- الدفاع عن الحرمات : ويتجلّى ذلك من خلال صون حمى المسلمين من أطماع أعدائهم والذود عن ثغور دولة الإسلام وضمان منعتها (استجابة المعتصم لنداء المرأة التي عمد جندي من الروم الإساءة إليها تلبية لنداء النخوة العربية وتحقيقا لمقتضيات الواجب الديني)

يقول أبو تمام : أجبته معلنا بالسيف منصلتا ولو أجبت بغير السيف لم تجب .

*قيم سياسية :

- الحنكة وبُعْدُ النظر: تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب (أبو تمام).

- المنعة والسيادة: لولا سميّ سيوفه ومضاؤه لمّا سُللن لكنّ، كالأجفان (المتنبي) .

- حسن التدبير ورجاحة الرأي والحكمة:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أوّل وهي المحلّ الثاني (المتنبي).

*قيم أخلاقية : ومنها الكرم والنخوة والشهامة والشرف ... يقول أبو تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

فتى دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر .

*قيم دينيّة: تتجلّى الحَميّة الدينية من خلال الغيرة على المعتقد ومحاربة أعداء الإسلام والطامعين في النيل منه. فالممدوح يبرز منقذا دينيا ومخلصا إلهيا أرسلته السماء إلى الخلائق ليكسر شوكة أعداء الإسلام، فهو أداة توجّهها القدرة الإلهية بما تشاء من أسباب النصر. يقول المتنبي :

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنّك التوحيد للشرك هازم .

إنّنا إزاء مخيال عربي جبل على أسطرة الانتصارات وتحويلها إلى ملاحم بطولية يتحالف فيها الإلهي والإنساني تحالفا ينتج ذاتا مقدسة لا يرتقي إليها النقد ولايجوز الاعتراض على إرادتها المتعالية .

المختلف بين الشعراء

1- حماسة أبي تمام : تتميّز قصائد أبي تمام بما يلي:

+ الكلف بالإيقاع المتوازن، ووسائله في ذلك متعدّدة منها التكثيف من جرس الحروف الشديدة أو المفخّمة واعتماد الازدواج وتوازن البنى النحوية بالإضافة إلى استخدام رويّين في البيت الواحد لإيجاد إيقاع داخلي.

+ الكلف باللفظ الجزل المصقول والكلمة الصادعة مع ميل إلى الحوشي الغريب. والعناية بحبك العبارة وجعلها مركبة إلى درجة دعت بعض النقاد إلى رميه بالتعقيد .

+ العناية بالصور المركبة التي تنطوي على قدر من الخيال الخلاق والبناء العقلي وإمعانه في الاستعارات البعيدة والمعاني المولدّة، لذلك نجد أن ناقدا مثل الصولي يعلن أنّ شعر أبي تمام يُحتاج في فهمه إلى ثقافة واسعة تضاهي ثقافة الشاعر، فأبياته تستوجب كثيرا من التأويل والتجريد والتروي، وكأنّ أبا تمام يقول الشعر بعقله وبوجدانه، يقول عبد الرحمان عطية في هذا الصدد" كان الفرق بين أبي تمام وغيره من الشعراء أنهم أبدعوا الشعر من مشاعرهم وأبدعه هو من وحي عقله ومشاعره ". لقد كان يمزح بين الفكر والعاطفة في التصوير كما يجمع بين الوصف وحسن التعليل .

+ كثرة توظيفه البديع من محسنات لفظية ومعنوية (طباق، مقابلة، جناس ...) واحتفاؤه بالصور البيانية كالاستعارة والمجاز. فأبو تمام لا يرسل أفكاره بالأسلوب المباشر، بل يلجأ إلى الأساليب البلاغيّة التي لا يكاد يخلو منها بيت من أبيات قصائده، ولكنّ دورها لم يقتصر في نصوصه الشعريّة على الزينة، وإنّما جاءت لأنّ المعنى يقتضيها، فثمّة مزج بارع بين اللفظ والمعنى، فهو يستعمل الطباق والمقابلة القائمين على التضاد لتوليد المعنى من خلال علاقات التقابل التي يسميها توافر الأضداد.

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدّ بين الجدّ واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

إنّ أبا تمام يكثر من البديع وخاصة المطابقة والتجنيس إلى حدّ الخروج أحيانا إلى "المحال"، يقول حذيفة بن محمد "أبو تمام يطلب البديع فيخرج إلى المحال ".

+ تكثيف أبي تمام من استخدام سجلات معجميّة مشتقة من معارف عصره.

+ القدرة الخلّاقة على ابتكار المعاني وتوليد الصور والاستعارات وذلك بتركيب أزواج من اللفظ لم نألف اجتماعها ومن أمثلة ذلك قوله :

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر .

يقول الناقد السوري أدونيس "خلق أبو تمام لغة جديدة تغاير لغة الحياة اليومية ولغة الحياة الشعرية السائدة ".

لقد كان أبو تمام على درجة كبيرة من الوعي بخروجه عن أشعار الأوائل وتجاوزه بعض ضوابط عمود الشعر التي درج عليها الشعراء :

لي في تركيبه بدع شغلت قلبي عن السنن .

2- حماسة المتنبي :

+ القدرة على توليد الصور اعتمادا على امتلاك ناصية اللغة، يقول خلف رشيد نعمان في هذا الصدد " إنّ قدرة المتنبي تتجلّى في أنّه تمكّن من أن يستخدم اللغة استخداما فريدا فيه من الاتساع ما يمكنه من التعبير عن أدقّ المعاني والأفكار فتبدو للقارئ وكأنّها قريبة منه، ولكن لا يمكنه التعبير عنها بالقدرة والدقّة التي كفلها الشاعر" .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم.

+ تكثيف المتنبي من استخدام السجلات المعجميّة البدويّة.

+ تضخّم الذات: يكشف حضور الذات في حماسة المتنبي حضورا مركزيا عن انشغال بالهمّ الذاتي لتطابقه مع الهمّ الجماعي، ويتجلّى ذلك التطابق منذ القصيدة التي قالها في صباه متأثرا بالأحداث التاريخيّة التي شهدها في تلك الفترة ومنها قوله :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فإن أجابوا فما قصدي بها لهم وإن تولوا فما أرضى لها بهم .

وكثيرا ما تمتزج الحماسة بالمعاني الفخريّة، لكنّها تبرز بوضوح في قصائد المدح وخاصة في السيفيات(قصيدة الحدث الحمراء ....).

+ من معاني الحماسة التي تفرّد بها المتنبي:

* فلسفة القوّة: لمّا كانت ذات المتنبي مفطورة على القوة والاعتداد بالنفس والطموح الجارف وجدناه يُعظّم في قصائده "فلسفة القوّة"، لذلك فإنّ حماسته تستحيل أحيانا كثيرة إلى سيل جارف وغضب عارم وتحدّ بلا حدود، فهي انتصار للذات وقيمها وشفاء ذات مكلومة من خيبات الواقع المرير:

لأتركنّ وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم

والطعن يحرقها والزجر يقلقها حتى كأنّ بها ضربا من اللمم.

فهو يحدّثنا في شعره عن الطموح الجارف إلى بناء المجد الذاتي، وعن النفس الكبيرة، وعن الإنسان القويّ القادر على صنع التاريخ، وعن رفض الكائن والتمرّد على الموجود. فهو يرسم صورة ملحمية للإنسان المريد المؤمن بفلسفة القوة :

ولا تحسبنّ المجد زقا وقينة فما المجد إلاّ السيف والفتكة البكر .

3 – حماسة ابن هانئ :

+ القدرة الفائقة على الوصف، وخاصة وصف السفن والمعارك البحريّة، يقول الألماني فون كريمر عنه " إنّه قوي البيان كثير التمثيل جيّد الألفاظ حسن الوصف لا يقدر على مسايرته إلاّ القليل ..."

+ المبالغة المفرطة التي تصل حدّ الإحالة (وهي عند النقاد المبالغة التي جاوزت الحدّ حتّى غدت ممجوجة لا يستسيغها الذوق) لتلونّها بغلوّ الفاطميين من الشيعة الإسماعيليّة مع ما يلزم ذلك من معاني المغالاة والتطرّف في العقائد، ومن ذلك قوله في مدح المعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم أنت الواحد القهار .

+ امتزاج المعاني الحماسية بالطابع العقائدي المغالي في التشيّع لآل البيت، ويتجلّى ذلك من خلال دمج مفهوم الإمامة بالبطولة، فالبطل إمام معصوم شبيه بالرسول، أمّا النصر الذي يحققه فهو وعد إلهي :

فتربصوا فالله منجز وعده قد آن للظلماء أن تتكشّفا
هذا المعز ابن النبي المصطفى سيذب عن حرم النبي المصطفى

+ الحماسة عند ابن هانئ انتماء إلى المذهب الشيعي ودفاع عنه وانحياز له ضد أعدائه يقول أحمد خالد " فقد اعتبر ابن هانئ الخليفة الفاطمي الرابع منقذا جاء ليذود الشرّ عن دار الإسلام ويملأها عدلا وصلاحا بعدما ملئت ظلما وفسادا ". ولاشك في أنّ اعتناق ابن هانئ لمبادئ الشيعة وتطوّعه لخدمة الدعوة جعل منه شاعرا سياسيا متحزّبا، لذلك يمتزج المعنى الحماسي في قصائده ببعد تعليمي وبخطاب تقريري يحمل آثار الدعوة المذهبية وهو ما يقوّي في شعره الوظيفة الإقناعيّة الحجاجيّة (البرهنة على أنّ المعز ودولته وجيشه يمثّلون الحقّ الإلهي في مقارعة دولة الكفر والظلال والباطل ...).

نصر الإله على يديك عباده والله ينصر من يشاء ويخذل .

+ مزاوجته بين أسلوب الترغيب (الترغيب في اعتناق المذهب الشيعي والولاء للمعز ودولته) وأسلوب الترهيب (ترهيب من يناوئه)، لذلك نجده يتحدّث عن عدوين عدوّ من خارج دار الإسلام (الروم...) وعدوّ من داخل دار الإسلام (بنو أمية وبنو العباس)

تشب لآل الجاثليق سعيرها وما هي عن آل الطريد بعيد

+ من أهمّ المعاني الحماسية عنده وصف المعارك البحرية والأساطيل، وهي من المعاني التي يندر وجودها في الشعر العربي .

أما والجواري المنشآت التي سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما ترجى القباب على المها ولكن ما انضمّت عليه اسود.

خاتمة القول في شعر الحماسة

تتجاوز جمالية قصائد الحماسة المستوى الفنيّ إلى المستوى الدلالي إشادة بقيم أصيلة وأعمال نبيلة جماعها قيمة الفتوة، وهي قيمة من قيم العرب الأثيلة منذ الجاهلية انبرى لها الشعراء متمثلين إياها في ذواتهم أو ممدوحهم أو في مرثيهم، ذلك أنّ وظيفة الشعر منذ القدم هي إعلاء قيم الجماعة ومحاولة تخليدها وتعطيف القلوب عليها, تلك القيم جميعها تمثّل منتهى ما اتفقت عليه الجماعة من أصيل الصفات وجليل الأفعال التي عزّ صاحبها في أحوال الضعف والانكسار الحضاري وقد أصيب القوم بالوهن .

إنّ شعر الحماسة شاهد على عصره من جهة تفاعله مع وقائعه ولا يعني ذلك أنّه قد استحال انعكاسا له، إذ يعبّر عن المنشود أكثر من تعبيره عن الموجود ، فقد زيّنه الشعراء بزينة الصور التخييليّة الطافحة بخارق الأحوال والأفعال، ففي قصائد الحماسة حضور لافت لأنا الشاعر، إذ تحضر أنا الشاعر الساردة والواصفة بكثافة مما يدلّ على اندماج الشاعر مع الحدث وصانعه معتمدا التهويل حينا والتهوين أحيانا أخرى، فيوظّف شعر الحماسة لما يلائم معاني التعظيم والتحقير والمدح والهجاء وشتى أساليب التحسين والتهجين.

قصائد الحماسة ليست إذا خطابا شفافا يعكس الواقع على نحو مباشر، إذ لم تكن معنيّة بالإخبار عن الوقائع بقدر ما كانت معنيّة بتجويد العبارة، لأنّ من غايات نظمها خلق التعجيب وإحداث التأثير والإدهاش وتحقيق الانفعال. لقد تعدّدت غايات شعراء الحماسة، فكان منها المشترك (الإشادة بالقيم وترغيب النفوس فيها) وكان منها الخاص (التعبير عن الذات وخدمة السلطان والمذهب ...). فشعر الحماسة لم يكن محصورا في البعد الموضوعي القيمي للشعر (تثبيت القيم المحمودة والحطّ من القيم المذمومة) بل إنّ الأبعاد فيه تتداخل، فقد نجد في القصيدة الواحدة البعد الذاتي التكسّبي والبعد الوجداني والبعد الموضوعي القيمي .

نخلص إلى أنّ شعر الحماسة ليس مجرّد قول جمالي ولا إشادة بفعل بطولي فحسب بل هو صوت متمرّد على الأصوات التي زهدت في حماية الثغور والذود عن الأوطان. فشاعر الحماسة منوط به أن ينطق بحاجاته وحاجات أمّته يصوّر انتصاراتها ويشيد بذات نموذجية تمثّلت قيم الجماعة، وهو ما يجعل الحماسة قولا شعريا ينوب فيه اللسان على السنان . وقد ذهب بعض النقاد إلى أنّ شعر الحماسة طقس من طقوس العبور من ثقافة الخسر إلى ثقافة النصر الذي يعزّ تحصيله، به يعطف الشاعر القلوب على قيم الحركة والفعل بديلا من واقع السكينة. إنّ شاعر الحماسة يخلق الصور من رحم الخيال يرى بها بطله كما يشاء يحيي ببطولته أملا هاجعا في النفوس باستعادة أمجاد يتربص بها الأعداء من كل جهة، وهو إلى ذلك يحيي في المتلقي روح البذل والعطاء .

إن شعر الحماسة بقدر ما يبعث فينا نخوة الانتماء والاعتزاز بهذه النماذج الطافحة بالقوة والبطولة يجعلنا أحيانا إزاء بطولة زائفة وانتصارات مشوبة بانكسارات حضارية. فالشاعر يصنع وَهْما سرعان ما يتهاوى قُدَّامَ الحقيقة التاريخية (التفكك السياسي، تأجّج الثورات الداخلية ...)، ولعلّنا على هذا النحو نجاري الناقد علي الوردي الذي اعتبر هذا النمط الشعري "رافدا من روافد تأسيس العقل العربي الذي يحوّل الهزائم الكبرى انتصارات مغلفة بإرادة القائد الفذّ الذي لا يشقّ له غبار ولا تُنكس له راية".